كلمة حفل الاستقبال

إنه شرف كبير لي أن أكون عضواً في مجمع اللغة العربية بدمشق الذي يُعدُّ أقدم مجمع للغة العربية في الوطن العربي ، إذ أسَّسَهُ عام 1919 الأستاذُ العلامة محمد كرد علي . وأنا ممتنٌّ جداً لجميع أعضائه الذين انتخبوني والذين لم ينتخبوني . ومما يزيد في سعادتي أني خليفة أستاذي المرحوم الأستاذ الدكتور محمد محفل الذي توفاه الله في الثاني من كانون الثاني عام 2019 . واسمحوا لي بداية أن أتحدث عن هذا الأستاذ الكبير الذي تعلمت منه غير قليل في مختلف ميادين المعرفة . فهو

محمد كامل محفل : (حلب 1928 – دمشق 2 / 1 / 2019)

مؤرخ ولغوي كبير حصل على الدكتوراه في تاريخ الشرق القديم ولغاته من جامعة جنيف السويسرية . منحه الرئيس بشار الأسد وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الممتازة بالمرسوم التشريعي رقم 191 تاريخ 5 / 6 / 2012 تقديراً لخدماته العلمية والوطنية . وقلَّدَتْهُ السيدة الدكتورة نجاح العطار نائب رئيس الجمهورية إياه في 20 / 6 / 2012 .

بدأ الأستاذ الدكتور محمد محفل رحمه الله حياته في مدينة حلب مسقط رأسه ، إذ تلقى تعليمه الابتدائي وشطراً من الإعدادي في معهد الأخوة المريميين ، الذي تعلَّم فيه اللغتين الفرنسية والانكليزية . وتعلم في الوقت نفسه اللغة العربية في حلقة الشيخ عمر المرتيني ، وفي المدرسة الشرقية بإشراف الشيخ مصطفى اللبابيدي . انتقل بعد ذلك إلى مدرسة التجهيز الأولى بحلب ، وحصل منها على شهادة الدراسة الثانوية عام 1949 . ثم انتسب إلى المعهد العالي للمعلمين بدمشق ، وحصل منه سنة 1953 على الإجازة في التاريخ ، ثم على دبلوم في التربية وعلم النفس وإجازة في التعليم الثانوي . عاد بعد ذلك إلى حلب ليُدَرِّس مادة التاريخ في ثانويات حلب في العام الدراسي 1953 – 1954 . أوفدته الجامعة السورية (جامعة دمشق الآن) في أواخر سنة 1954 إلى جامعة باريس للحصول على الدكتوراه في التاريخ القديم ، وانتسب في الوقت نفسه إلى معهد اللوفر لدراسة اللغات الآرامية والإغريقية واللاتينية . لكن بعد مُضي سنتين من الدراسة في الجامعة ، و حصوله على درجة الماجستير سنة 1956 ، طلبت إليه السلطات الفرنسية مغادرة فرنسا بتهمة تأييد الثورة الجزائرية . غادر باريس إلى سويسرة لمتابعة دراسته في جامعة جنيف ، وكان عنوان أطروحة الدكتوراه " دور الرقيق في انحطاط الإمبراطورية الرومانية . عاد إلى دمشق عام 1967 ليعمل أستاذاً في قسم التاريخ ، إذ كُلِّف تدريسَ مادة تاريخ الإغريق والرومان واللغات القديمة الإغريقية واللاتينية والآرامية . وبقي يُدرِّس هذه اللغات حتى تقاعده . كما درَّس تاريخ العمارة في كلية العمارة ، وتاريخ الفن في كلية الفنون الجميلة . وعمل أستاذاً زائراً في الجامعة الأردنية ما بين عامي 1968 – 1971 .

أسهم الأستاذ الدكتور محمد محفل بتأسيس لجنة كتابة تاريخ العرب في جامعة دمشق ، وكان أمين سرها ، وترأس تحرير مجلة دراسات تاريخية التي أصدرتها اللجنة ما بين 1994 – 2003 . كما عمل في قسم الإذاعات الأجنبية في الإذاعة السورية .

ومن المهام الأخرى التي أُوكِلَتْ إليه عضوية مجلس الآثار التابع لوزارة الثقافة . منحته جامعة الدراسات الإسلامية في مدينة كراتشي الباكستانية درجة الدكتوراه بتقدير امتياز في 27 / 1 / 1999 .

وضع الأستاذ الدكتور محمد محفل رحمه الله عدداً كبيراً من الدراسات التاريخية واللغوية والحضارية التي كان لها الأثر الكبير في نشر الوعي بأهمية تاريخ سورية القديم وتاريخ الشرق

الأدنى القديم ، وتاريخ العرب القديم ، و بضرورة دراسة لغات المشرق العربي القديم ، كالأكَّادية والفينيقية والأوجاريتية والكنعانية والآرامية وغيرها لصلتها الوثيقة باللغة العربية التي تُعدُّ الوريثة الشرعية لكل هذه اللغات . نذكر من هذه الدراسات ما يأتي :

1 – تاريخ الرومان ، (بالمشاركة مع الدكتور محمد الزين) دمشق 1970 .

وقد طُبع طبعات عدة ، و ما زال يُدَرَّس في قسم التاريخ في جامعة دمشق .

2 – المدخل إلى اللغة الآرامية ، دمشق 1971 .

وقد كتبه الأستاذ محفل بخط اليد لصعوبة طباعته لعدم وجود التقنيات الحديثة التي تُمكن من طباعته زمن صدوره . وما زال هذا الكتاب يُدرَّس في قسم التاريخ في جامعة دمشق حتى الآن . ولمَّا خلفتُه في تدريس اللغة الآرامية في القسم طلبت إعادة طباعته قبل سنتين تحية شكرٍ وتقدير له على جهوده في تعليم مئات لا بل آلاف من الطلاب السوريين والعرب .

3 – المدخل إلى اللغة اللاتينية ، دمشق 1972 .

أيضاً ما زال هذا الكتاب يُدَرَّس في قسم التاريخ في جامعة دمشق حتى الآن .

4 – تاريخ العمارة ، دمشق 1976 .

5 – تاريخ الفن ، دمشق 1977 .

6 – دمشق الأسطورة والتاريخ ، من ذاكرة الحجر إلى ذاكرة البشر ، الأمانة العامة لاحتفالية دمشق عاصمة الثقافة العربية عام 2008 .

7 – أسلافنا العرب ، دراسة في دور العرب في فجر الحضارة الأوروبية ، وزارة الثقافة 2007 (ترجمة) .تأليف بوجن أولسمر .

انتُخِبَ الأستاذ الدكتور محفل عضواً في مجمع اللغة العربية بدمشق ، و صدر مرسوم تعيينه في 30 تشرين الأول 2008 ، خلفاً للأستاذ الدكتور عبد الكريم اليافي . وكانت له إسهاماته الواضحة في نشاطات المجمع ، نذكر منها :

1 – المشاركة في أعمال لجنة مجلة المجمع ، ولجنة مصطلحات ألفاظ الحضارة ، ولجنة النشاط الثقافي .

2 – المشاركة في المؤتمر السنوي الثامن (نحو رؤية معاصرة للتراث) سنة 2009 ، وألقى محاضرة فيه بعنوان : دور الحضارات القديمة في التراث العربي قبل الإسلام و بعده .

3 – المشاركة في ندوة : أضواء مجمعية على مجالات الإصلاح سنة 2014 ، وألقى محاضرة فيها بعنوان : مجالات الإصلاح عند محمد كرد علي وكامل عياد .

4 – معجم ألفاظ الحضارة ، الجزء الأول ، المهن والحرف والمنزل والملابس (بالمشاركة مع آخرين) ، مطبوعات المجمع 2014 .

ومن نشاطاته الأخرى إلقاء المحاضرات الآتية في المجمع :

1 –بلاد كنعان في العالم القديم ، 24 / 2 / 2010 .

2 – الأبجدية وأصول الكتابات ، 29 / 5 / 2014 .

3 – من كتابة أوجاريت إلى الكتابة العربية 2014 .

ونشر في مجلة المجمع :

أضواء على دراسة العربية في جنوب الجزيرة العربية حتى ظهور الإسلام .

وكان قد نشر في ثمانينيات القرن الماضي وتسعينياته عدداً من المقالات في مجلة دراسات تاريخية ، وفي مجلة التراث العربي ، وفي مجلة المعرفة ، نذكر منها :

1 – في أصول الكتابة العربية ، عدد تشرين الأول 1981 .

2 – متى كان لسورية والعراق حدود مميزة خاصة ، عدد حزيران 1994 .

3 – قراءة في كتاب جغرافية باطلة وتاريخ صحيح ، عدد حزيران 1996 .

4 – العربية لغةً وكتابةً ، مجلة التراث العربي ، عدد نيسان 1998 .

4 – مدخل تاريخي إلى عالم ابن رشد ، مجلة التراث العربي ، عدد كانون الثاني 1999 .

5 – عولمة أمريكية وحداثة إنسانية ، مجلة المعرفة ، عدد شباط 2004 .

وكتب مقدمة على درجة كبيرة من الأهمية لرواية " سارة ، المرأة التي هدمت الإمبراطورية العثمانية ، للمؤلف التركي لطفي أكدوغان ، التي صدرت عن دار طلاس في طبعتين ، الأولى عام 1995 ، والثانية عام 2011 .

كما أدى دوراً مهماً في تدقيق بعض المسلسلات التلفزيونية التاريخية مثل : ربيع قرطبة ، وصلاح الدين ، وصقر قريش ، وملوك الطوائف ، والظاهر بيبرس ، وعنترة بن شداد ، حتى إنه لُقِّب بحارس التاريخ في الدراما العربية .

لقد تعرفت إليه في سبعينيات القرن الماضي حين انتسبت إلى قسم التاريخ في جامعة دمشق ، فوجدت فيه المعلم والأستاذ والصديق والإنسان المتواضع الذي يحترم جميع الناس ويقدرهم دون النظر إلى وضعهم المادي أو الطبقي أو العلمي ، أو إنتمائهم الديني أو السياسي . كنت ألتقيه بين الفينة والأخرى ، ولا سيما عندما كان رئيس تحرير مجلة دراسات تاريخية ، أو حينما كنت أحدِّثه هاتفياً ، أو ألتقيه في مقهى " الكوخ " في مشروع دمر . وفي كل مرة كنت أتعلم منه أشياء جديدة . كان كنزاً لا ينضب من المعلومات في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتاريخية والفكرية وغيرها . وبقي ذهنه متوقداً معطاءً حتى أواخر أيامه ، فقد قابلته قبل وفاته بنحو ثلاثة أشهر في مركز تطوير المناهج التربوية التابع لوزارة التربية ، وتناقشت معه في بعض القضايا التربوية والتاريخية ، فحلل وشرح وأفاض في الشرح دون أي مشكلة في التعبير أو الإيضاح ، اللهم إلا بحة بسيطة في صوته.

أخيراً لا بد من الإشارة إلى عبقريته في قراءة الحاضر واستقراء المستقبل اعتماداً على معرفته في التاريخ القديم وعلم الرجال . وأذكر هنا مثالين اثنين عن ذلك فقط . فقد تنبأ بمقتل إسحق رابين رئيس وزراء العدو الصهيوني قبل اغتياله بأسبوع عام ١٩٩٥ ، إذ رأى في ممارسة الذين اغتالوه ، والذين ينتسبون إلى إحدى الجماعات اليهودية المتطرفة ، إشارة إلى ذلك ، فقد كانوا يدورون حول بيته ويشتمون أمه.
والمثال الثاني رؤيته لعزمي بشارة حينما زار دمشق و التقاهُ ، إذ قال عنه : إنه غير نظيف ومجند للقيام بمهمة تخدم العدو الصهيوني ، وقد صدقت رؤيته.
إن هذين المثالين وأمثلة أخرى كثيرة لا مجال الآن لذكرها ، تدل على عبقريته الفذة في استقراء المستقبل والحكم على الرجال.

مشروع المستقبل :

تُؤَلِّفُ دراسة لغات المشرق العربي القديم (اللغات السامية) قاعدة أساسية لدراسة نشوء اللغة العربية وتطورها . فالروابط والصلات بين اللغة العربية و هذه اللغات كثيرة وأصيلة ، قديمة و مستمرة ، وتبرز بوضوح ليس فقط في العربية الفصحى ، بل أيضاً في اللهجات المحكية التي تُعدُّ خزاناً غنياً ملآنَ بمفردات و مصطلحات ما زلنا نستعملها ، على الرغم من تاريخها العتيق .

وقد أنجزت قبل مدَّة قصيرة دراسة معجمية عن علاقة اللغة العربية بلغات المشرق العربي القديم بالاعتماد على المعجمات المعروفة لهذه اللغات ، المنشورة بلغات أجنبية كثيرة ، المرتكزة على نصوص قديمة أصيلة تركها أولئك الذين تكلموا بهذه اللغات وكتبوا بها آدابهم و نصوصهم المختلفة . وستصدر هذه الدراسة قريباً إن شاء الله عن الهيئة العامة السورية للكتاب . وأنوي في المستقبل أن أتابع هذه الدراسة بدراسات تفصيلية معمقة أكثر لعلاقة العربية بكل لغة أو لهجة من هذه اللهجات كالإبلوية ، لغة مدينة إبلا ، والأوجاريتية ، لغة مدينة أوجاريت ، والفينيقية لغة فينيقيا (أو كنعان) ، والآرامية ، لغة ممالك بلاد الرافدين وسورية القديمة الآرامية في الألف الأول قبل الميلاد ، وأشهر لهجاتها السُّريانية ، والتدمرية ، والنبطية وغيرها . و لن أنسى في هذا المجال دراسة لهجات العرب القديمة الشمالية والجنوبية الكثيرة ، كالصفوية والثمودية واللحيانية والمعينية والسبئية والقتبانية والحضرمية وغيرها من اللهجات التي ما تزال آثارها باقية في بعض مناطق شبه الجزيرة العربية .

إن الأمانة العلمية تُحتم علينا العودة إلى النصوص القديمة المكتوبة بهذه اللهجات المتاحة لنا في مكتبتنا المتواضعة ، وفي بعض المكتبات الأخرى التخصصية كمكتبة المتحف الوطني بدمشق ، و بالاعتماد على ما تقدمه لنا الشابكة من نصوصٍ ودراسات أكاديمية رصينة ، لأن في ذلك إثراءً لأيِّ دراسات لغوية مقارنة .

لقد اهتم سكان الشرق القديم عموماً بالتعليم والقراءة والكتابة والمكتبات ، و بإقامة المدارس و دور العلم التي كانت ملحقة بالمعابد والقصور الملكية . وجمعوا فيها مختلف صنوف المعرفة ، من حسابٍ و طبٍ و هندسة و فلكٍ ورياضيات و صيدلة وأساطير و غيرها . و يكفي أن نذكر في هذا المجال مكتبة الملك الآشوري آشوربانيبال (668 – 627 ق . م .) التي أقامها في قصره في عاصمته نينوى . و سبقتها في الظهور مكتبات كثيرة كمكتبات المدن السومرية أور ، و أوروك ، و نيبور في بلاد الرافدين (العراق القديم) و مكتبات إبلا ، و ماري ، و أوجاريت ، و قطْنة ، في سورية القديمة . واشتُهرت في عصور لاحقة كالعصر الهلنستي مكتبة الإسكندرية في مصر ، و مكتبة أنطاكيا في سورية ، ومكتبة بيرغامون في آسيا الصغرى ، وغيرها من المكتبات .

وكمثالٍ على النظام التعليمي الذي كان سائداً في المدرسة (في السومرية : إِ – دوب - با ، وفي الأكادية : بيت طوبيم : بيت الألواح) نقدم فيما يأتي نصاً ثنائي اللغة سومرياً – أكَّادياً ، يصف لنا يوماً من أيام المدرسة ، وبعض نشاطات التلميذ المدرسية :

" يا بن بيت الألواح (التلميذ) إلى أين كنت تذهب في الأيام الماضية ؟

كنت أذهب إلى بيت الألواح .

ماذا فعلت في بيت الألواح ؟

قرأت لوحي وأكلت طعامي ، صنعت لوحي وكتبته حتى النهاية . بعد ذلك أُعِدَّت لي أسطر كوظيفة ، وأُعِدَّ لي بعد الظهر لوحي اليدوي (لوح للدراسة في البيت) .

دخلت البيت ، كان أبي يجلس هناك . قرأت أمام أبي لوحي اليدوي ، قرأت له لوحي بصوتٍ مرتفع . سُرَّ أبي بذلك . ذهبت إلى أبي وقُلت له : أنا عطشان ، أعطوني ماءً لأشرب ! أنا جائع أعطوني خبزاً لآكل ! غسلت قدمي وجهزت سريري ، أريد أن أنام ، أيقظوني في الصباح الباكر ! لا أريدُ أن أذهب متأخراً وإلا ضربني معلمي .

عندما استيقظت في الصباح الباكر ، نظرت إلى أمي ، وقُلت لها : أعطني فطوري ! أريد أن أذهب إلى بيت الألواح . حينما أعطتني أمي رغيفين ..... ، أخفيت جوعي عن عينيها . حينما أعطتني أمي بعد ذلك رغيفين ، ذهبت إلى بيت الألواح .

في بيت الألواح قال المراقب لي : لماذا أنت متأخر ؟ حينئذٍ خفت و صار قلبي يخفق .

مثلت أمام معلمي و جلست . أبو مدرستي ، أبو بيت الألواح قرأ لوحي بصوتٍ عالٍ ،

و قال لأن قسماً منه كُسِر ضربني بالعصا .

و حينما راح المعلم يتحدث عن قواعد السلوك في بيت الألواح ، تكلم الرجل المسؤول عن الملابس : لقد تسكعتَ في الطريق ..... و ضربني بالعصا . أبو بيت الألواح أعدَّ لي لوحي .

تكلم الرجل المسؤول عن الهدوء و قال : لماذا تكلمت دون أذني ؟ و ضربني بالعصا .

تكلم الرجل المسؤول ..... و قال : لماذا لم ترفع الكأس ؟ و ضربني بالعصا .

تكلم الرجل المسؤول عن قواعد السلوك وقال : لماذا وقفت دون أذني ؟ و ضربني بالعصا .

تكلم مراقب البوابة : لماذا خرجت دون أذني ؟ و ضربني بالعصا .

تكلم رجل السوط : لماذا تسلَّمْتَ ..... دون أذني ؟ و ضربني بالعصا .

قال معلم السومرية : لماذا .....؟ و ضربني بالعصا .

تكلَّمَ معي و قال : لا تزال يدك (يعني خطك) سيئة ، و ضربني بالعصا .

صار عندي نفور من الكتابة ، وأهملت الكتابة " .

يظهر لنا من خلال هذا النص أن المدرسة كانت تحكمها ضوابط شديدة ، وإذا خالف التلميذ هذه الضوابط عُرِّضَ للعقوبة بالضرب بالعصا .

وتعكس الأحجية السومرية الآتية أهمية المدرسة في التعليم :

" بيتٌ كالسماء أُسِّسَ على قاعدة متينة ، بيتٌ غطَّاهُ المرءُ بالكتان كأنه وعاءٌ نقي ، بيتٌ كالوزة الواقفة على قاعدة متينة ، يدخلُ المرء إليه بعيونٍ مغمضة ، و يخرج منه بعيونٍ مفتوحة ، فما هو :

الحل : إنه بيت الألواح " ، أي المدرسة .

ويفتخر شولجي ، ثاني ملوك مملكة أور الثالثة (2093 – 2046 ق . م) ، أنه أسس مدرستين ، الأولى في العاصمة أور ، والثانية في نيبور عاصمة بلاد سومر الدينية . و يفتخر في أحد النصوص أنه منذ صغره كان يزور المدرسة ، و درس ألواح سومر وأكَّاد . ولم يكنْ أحدٌ في المدرسة يستطيع منافسته في الكتابة على الألواح الطينية . وأنه أتمَّ مهارته في الكتابة المسمارية ، والعدِّ ، والحساب ، وقياس مساحات الحقول . و قد وهبته " نيسابا " ، إلهة الكتابة والكتَّاب والحساب والهندسة والتنجيم والفلك ، الذكاء والفهم والقدرة على التركيز ، وأصبح من ثمَّ كاتباً ماهراً لا يصعب عليه شيء .

وبعد شولجي بقرونٍ طويلة يتباهى آشوربانيبال أشهر ملوك الإمبراطورية الآشورية الحديثة ، بأنه أجاد فن الكتابة بشكلٍ لم يسبقه إليه أحدٌ من الملوك السابقين . إذ يقول :

" قصر آشور بانيبال ملك العالم ، ملك بلاد آشور ، الذي اتكاله على الإله آشور وعلى الإلهة نينليل ، الذي وهبه الإله نابو والإلهة تَشميتو فهماً واسعاً . الذي تلقى عيناً مضيئة ، المُختارَ من فن الكتابة ، كما لم يتعلم هذا الفن أي ملكٍ من الملوك الذين سبقوني . حكمة نابو إله الكتابة والكتَّاب ، والإشارات المسمارية ، كما رُتِّبت ، كتبتُها على ألواحٍ و دققتُها و راجعتُها ، من أجل قراءتها ، ولجعلها تُقرأ لي ، وضعتُها داخل قصري .

مَن يتكلْ عليك ، يا آشور يا ملكَ الآلهةِ ، لن يصيبَه مكروهٌ .

مَن يأخذ لوحي ، أو يكتب اسمه بدلاً من اسمي ، عسى أن يحطمه بحنقٍ وغضب الإله آشور والإلهة نينليل ، وليُدَمَّر اسمَه و نسلَه في البلاد " .

ونذكر أشهر النساء اللواتي تعلمن القراءة والكتابة ، وقرضن الشعر، ووضعن المدائح الإلهية ، الأميرة " إنخيدوأنَّا ، ابنة شاروكين الأكَّادي كاهنة إله القمر الكبرى في مدينة أور ، التي وضعت أشعاراً لتمجيد نانا إله القمر ، و عشتار إلهة الحب والخصب والحرب ، ومن ثَمَّ فهي تُعدُّ أقدم شاعرة وكاتبة معروفة في التاريخ .

كان يُؤَهَّلُ الكتَّاب في مدارس (بيت الألواح وبيت الحياة) ملحقة بالمعابد والقصور ، يتعلم فيها الطالب القراءة والكتابة وجميع معارف عصره ليتخرج بعدها باسم " كاتب " (دوب سار بالسومرية ، و طوبشار بالأكادية : كاتب اللوح الطيني) .

كما عُرف الكاتب باللغة الأكادية باسم " شاطِر " أيضاً ، المشتق من فعل " شَطَر " أي كتب ، دوَّن . وما زلنا نستخدم كلمة " شاطر " لوصف الشخص الذي يتمتع بذكاء حاد . والكاتب باللغة الأوجاريتية " سفر " ، وبالعبرية " سيفير " و بالآرامية " سيفرا " : كاتب الرِّق ، التي نشأ منها بالعربية " سافِر " وجمعها " سَفَرةٌ " أي كَتَبَةُ ، إذ نقرأ في القرآن الكريم " بأيدي سَفَرَةٍ كِرامٍ

بَرَرَةٍ (سورة عبس الآية 14 – 15) . والسِفْرُ بالآرامية " كتاب ، رسالة ، نص مكتوب " ، التي انتقلت إلى العربية بالصيغة نفسها ، " كمثلِ الحمارِ يحملُ أسفاراً " (سورة الجمعة الآية 4) .

ختاماً أكرر شكري لجميع أعضاء مجمع اللغة العربية بدمشق ، راجياً من الله أنْ أوفق في خدمة اللغة العربية ، والكشف عن جذورها القوية الضاربة في أعماق الزمن .

أ . د . عيد مرعي

الأربعاء 3 / 8 / 2022